



المعرفة بحر محيط، عميق الغور، متسع الأرجاء، نصيّبنا منه ضئيل يسيراً، فما أنت في هذا العالم إلا قطرة من ماء ذاك المحيط، لا تحيط بأسرار لفتك فما بالك بلغات العالم التي لا تعد، لا تعرف تضاريس بلادك، فما بالك بتضاريس بلاد الآخرين، لا تعرف المعالم الكبرى من تاريخك، فما أنت وتاريخ البشرية الراهن بالأحداث على مر العصور، استجلب كل ما تعية ذاكرتك المنكوبة بهذا العصر تجد منطقة الوعي والإدراك صغيرة تكاد تقبض عليها بيد واحدة.

اطلعت على اليسير من التجارب، وقرأت القليل من الكتب، عشت رتابة الأيام وليلاتها المملة، وبحثت عما يحيي ما مات من الذكرة، وينعش ما بقي منها في الحياة، كنت تحلم بأحلام جميلة كبيرة، وجاءتك كوابيس مخيفة لم تكن في الحسبان. لم تكن تدري أن للمعرفة مواسم تزدهر فيها وتنمو بوتيرة عالية، تتكاثر فيها بلا حساب، يجلبها الأسى، وتأتي بها الأحزان، تنشط في الأهوال، وتزداد بعد الفجائع، تزدحم الصور والمعارف عند ناشدي الحرية وعاشقى الأوطان، تتراكم الخبرات في ألوان الأوجاع وأسباب شفائها.

ستنان من عمر الثورة أو تزيدان قليلاً، وها هو غبار التاريخ يتجمع بضجيجه من جديد، ضارباً الذكرة بخاصرتها لتنشط بعد كسل طويل، الغشاوة زالت، والنائم استيقظ، وكأنما الماضي حي لا يموت. زادت المعرفة أضعافاً مضاعفة في زمن مكتف مضغوط، لغة الأمس غابت.

الربايات تبدلت والشعارات استهلكت، نغمات الأصوات تغيرت، لغة الضاد غدت فارسية بكلمة عبرية، الممانعة والمقاومة والنضال تجاوزت مفاهيمها المرحلية واتجاهاتها القديمة - التي كانت مصممة للتجارة والتسويق وبناء السمعة - إلى مفاهيم واتجاهات تنسجم مع العقيدة الواردة من وراء النهر، الغائرة في التاريخ المنشور، البنية الموجهة للعدو الافتراضي وجدت عدوها الحقيقي الذي تحمل له ضغينة لا سقف لها، وحقداً لا حدود له، اللهي التي كانت تربى إحياء للسنة النبوية الشريفة غدت تربى لقتل أهل النبي الكريم - عليه صلاة ربى وسلامه - وبنיהם ، والعمائم التي كانت تزين الرؤوس وتنبئ عن طهر ونقاء وشهامة غدت علامات لقتلة الأطفال ومحظى النساء ومستبيحي الأوطان.

كنا نعرف موتاً واحداً يرتاد ديارنا في أوقات متباعدة على استحياء، يزور مريضاً بمرض مميت أو مصاباً تعرض لحادث، أو شيخاً أنهكته الشيخوخة ومل الحياة، يموت على فراشه، يحيط به أهله ومحبوه، يسجى مكرماً معززاً، يغسل جسده

ويطيب، يشهد له المعزون بالمناقب الكريمة والمزايا الفريدة، ويشيع إلى مثواه الأخير بعد الصلاة عليه، داعين له بالرحمة والمغفرة، يفارق أحباباً حزانياً وصابرين، ويرحل ضيفاً لرب كريم، ما أجمل الحياة كانت، وما أجمل الموت كان. وغدonna نراه صباً وعشية، ظهراً وعصرأً، في الهزيع الأخير من الليل، وعند إطلالة الصباح، يجيء على غير موعد، من النافذة، من الباب، من السقف، من حيث ندري ولا ندري.

يرتاد الأحياء السكنية فيسقط على العمارة الكبيرة وعلى المنزل الصغير، على الإسمنت وعلى الطين، على بيت الشعر وعلى الخيمة، يحط في الشارع وفي الحدائق، يهد أركانها، يلغى ساكنيها، يمحو معالها، مهمته الإبادة والحرق والتدمير.

يطلع علينا من الزوايا والمنعطفات، يسقط علينا من السماء، فأسه في يده، ورؤوسنا في متناولها، يجيء بطائرة ترمي حمولتها من البراميل المتفجرة، أو تنشر سموتها من الغازات المميتة، لا يعاني من حيرة يعانيها من ينتقي الضحية، ولا يستقصي كي لا يقع في العنوان الخطأ، يسقط على الجميع، على الجنين في بطن أمه، وعلى الطفل في مدرسته أو في سريره، وعلى الأم وهي تطعم أطفالها، وعلى الأب وهو يزهو بأزهاره ووروده، على الجد الطاعن في السن وعلى الجدة التي ارتسست على وجهها تجاعيد السنين، كلهم لدى القتلة سواء، حيث ممزقة تسحب من تحت الأنفاس، فلا وقت للبكاء، ولا وقت للعزاء، يغامر الأحياء بحفر القبور الجماعية ودفن الشهداء، يتداولون النظارات الحزينة بصمت، ويرفعون عيونهم الشاكية إلى السماء.

أفتلت المرجعية بذلك، قتال الأميركيين المحتلين في العراق حرام، وقتل المواطنين الأميركيين في سوريا ولبنان والعراق واليمن والبحرين حلال، المرجعية التي ناصبت البعد العراقي العداء، تبنت البعث السوري، وهمما فرعان لفكر علماني واحد، ليس للدين فيه من نصيب، قالت لغلامها الصفيق -

بشفقتها المعهودة على دماء المسلمين وعدائهما الشهير للأميركيين واليهود : دع صواريخ أبناء داود تنزل على قاسيون، وعلى دير الزور، وعلى عين الصاحب، وفي أي موقع آخر تريده من البلاد، فهي لا تحمل لك ضغناً ولا عداء، دعها - حتى لو نزلت بفناء قصرك - فهي نيران صديقة، تبعد عنك الشبهة، وتنفعك في الغد يوم تنطلق الألسنة، وتقف معك إن لزم الأمر، وهذا هي قد وقفت يوم تجراً عليك الثوار عند حدودها، دعها وقل سأرد في الوقت المناسب، سيصدقك المغفلون، ويستحسن ذلك منك المحبون.

كنا نقرأ عن التجويع والحصار والتعذيب والتمثيل بالجثث وعن التشريد، عن اللجوء والمنافي في القصص والروايات، وكنا نتهم الكتاب بالمبالغة، ولكننا في هاتين السنين، ذقنا كل هذه الويلات، فها هي ديار أهلنا تقفر من ساكنيها، نبحث في كل وجهة عن وجه حبيب رحل، فيعجزنا البحث، تخوننا قوانا وننكمي إلى الأطلال نسألها ولا تجيب.

سنستان من عمر الثورة المباركة المنصورة بإذن الله، ولهيب في القلب لا ينطفئ، وشعلة المعرفة تتوهج، تكشف مساحة ما كنا نجهل من دجل الساسة، وتديس الإعلام، وتأمر اللاعبيين الدوليين. علمتنا الثورة أن لسورية وضع خاص ليس لغيرها من الدول العربية التي قامت بها الثورات، فالطاغية فيها سليل خيانة، ورث دور الحارس لحدود إسرائيل، ودور المعهد لأهم الأجزاء من المشروع الفارسي في المنطقة، ولو لا هذين الدورين الخبيثين لكان زواله أسرع من سبقه من الطغاة.

علمنا الثورة المباركة أن نظرية المؤامرة على العالم العربي والإسلامي حقيقة واضحة لا تحتاج إلى براهين بعد الخذلان المريض للدماء البريئة، والمساندة المستديمة لعصابة الطاغية وإنعاشه بكل الوسائل كلما أحدق بها الخطير، وبعد توزيع الأندواد المرrib بين الشرق والغرب في منظمة الأمم التي تدار بخبث شيطاني من حكومة العالم الخفية. علمتنا الثورة أن أمن إسرائيل هو الذي يحدد اتجاهات السياسة العالمية ويمنح درجات الرضا والحظوظة والمساندة لأنظمة والحكومات الإقليمية أو الغضب والنفور منها، ويرسم الخطط الإعلامية لإعلاء شأن النافعين في هذا المجال، والإضرار بالأعداء المحتملين أو بمن يمكن أن يشكل خطراً على هذا الأمن في يوم من الأيام.

علمنا الثورة أن الدعاوى المذهبية الضيقة، والتخفي خلف الشعارات التي تهواها جموع المسلمين في مشارق الأرض وغاربها كحب آل البيت، والانحياز للعترة النبوية الشريفة، ورد المظالم التي طالتهم على مر التاريخ، والبريق الكاذب للممانعة والمقاومة، هي أدوات صنعة وقفازات محترفين، تستخدم كلما دعت الحاجة لتمرير المشاريع التي تفتك بكيان الأمة والقضاء على حلمها في التحرر والنهوض.

علمنا الثورة أن أحرار الفكر وأصحاب الضمائر الحية يقفون دوماً مع الحق حتى وإن كان انتماً لهم العرقي أو الطائفي في الجانب الآخر، وعلمنا أن منحرفي الفكر ومن بهم مرض يقفون مع الباطل حتى وإن كان انتماً لهم العرقي أو الطائفي لأهل الحق، وعلمنا الثورة أن الأفراد والجماعات البشرية لديها طاقات عجيبة على السمو ترفعها إلى مصاف الملائكة عندما تزكي نفوسها، كما أن لديها القدرة على التخلّي عن إنسانيتها والانحطاط إلى درك لا يقرّ له حتى لترأف بحالها البهائم والوحش.

نعرف من دروس التاريخ أن قبائل عربية عريقة سقطت اجتماعياً سقوطاً مدوياً لا زالت تعاني من أوجاعه ونتائجها لوقوفها مع أعداء الأمة في سبيل مصلحة عابرة ومنفعة زائلة، وأررنا الثورة كيف أن بعض مرضى النفوس يقفون الآن نفس الموقف في سبيل مطعم شخصي هزيل، يساندون الظالم في ظلمه لأمتهم، ويجرون أهلهم وقبائلهم إلى ذات المصير.

سنتان من عمر الثورة أكسبتنا فهماً جديداً بتاريخنا، ووعياً بجغرافيتنا، وإدراكاً بتنوعنا، وانحيازاً لقيمنا ومعتقداتنا، وتصميماً على النصر أو الشهادة، وحافزاً للبحث عن مصالح أمتنا وأوطاننا بعيداً من المشاريع المشبوهة ومخططات الأعداء.

خذلت الثورة أمنيات كيسنجر في وصيته للقاتل المحترف مناحيم بیغن: (إني أسلنك أمة نائمة، والمشكلة أنها تنام ولا تموت، فاستمر فترة نومها ما استطعت، لأنها إذا ما استيقظت فإنها تعيد في سنوات قليلة ما ضاع منها في قرون). سنتان من عمر الثورة وهاهي الحياة تسري في جسد الأمة، دم الشهداء جدد خلاتها النائمة، ها هو العملاق يتمطى، الجسد الذي خدر لقرون يستيقظ بإذن الله.

المصادر: